

دور رحلات الحج في التّواصل الثقافي بين المغرب والمشرق (ق 8 هـ/14م)

د. عبد الرحمن بالأعرج

أستاذ محاضر-قسم التاريخ جامعة أبو بكر بلقايد - تلمسان

résumé:

Il ya avait de nombreux aspects de l'interaction culturelle entre le Maghreb et l'Orient depuis les premiers siecles de l'Islam. Le pèlerinage a contribué l'établissement de ses relations surtout dans son cote culturelle. Cette article a comme but de montré les voyages de pèlerinages les plus célèbre, lancé dupuis le Maghreb et l'ntéret des maghrebais aus pèlerinage et son impact culturel sur le pays du Maghreb.

الكلمات المفتاحية:

Maghreb , l'Orient, Le pèlerinage, l'interaction culturelle, 14^{me} siècle.

المقدمة:

يستعرض هذا المقال دور الحج في التواصل الثقافي بين المغرب والمشرق الإسلاميين خلال القرن الثامن الهجري /14م، وكما هو معلوم، فإن الحج هو الركن الخامس من أركان الإسلام، ولا تخفى المكانة التي تحتلها زيارة البقاع المقدسة بالحجاز في قلب كل مغربي، وكان المسلمون في المغرب والمشرق حريصين كلّ الحرص على أداء مناسك الحج رغم مشاقّه ومصاعبه وبُعد المسافة بالنسبة للمغاربة، وفي هذا الصدد يقول الشيخ محمد بن عبّاد الرّندي⁽¹⁾ في إحدى رسائله: "المشي إلى الحجّ في هذه الأزمنة"⁽²⁾ ممّا يعظم حرص النّاس عليه وتميل نفوسهم إليه، ويؤثرون المشقّة والقلّة والغربة اللازمة له على الرّاحة والجّدّة والإقامة"⁽³⁾. فما هي مظاهر

اهتمام المغاربة بالحج؟ وكيف ساهمت رحلاته في تقوية الصّلات الثقافية بين المشرق والمغرب الإسلاميين خلال ق8 هـ/14م؟

عناية المغاربة والمشاركة بالحج والبقاء المقدسة في الحجاز:

اعتنى ملوك وسلاطين وأمراء دول المغرب بركن الحجّ، وبذلوا في سبيل إنجاحه كلّ موسم ما يستطيعونه من المال وتمهيد الطّرق وتأمينها وإقامة دليل لركب الحجيج المغاربة، وكذلك بالمراسلات مع سلاطين الممالك و شكرهم على ما كانوا يبذلونه لإنجاح مواسم حجّ المغاربة إلى البقاع المقدّسة⁽⁴⁾.

كما اعتادوا بعث الرّيعات الشريفة والمصاحف وحبسها على الحرمين، وكانوا يكلفون كبار الشخصيات والعلماء للقيام بهذا الدّور الجليل⁽⁵⁾.

كما كان سلاطين الممالك أشدّ ما يعنون بالحج والحجيج، خاصّة بعدما أصبحوا أوصياء على خدمة الحرمين والبقاع المقدّسة الإسلاميّة بالشرق عمومًا، لذلك خصّصوا بمناسبة الاستعداد للحجّ يومًا يسمى يوم المحمل، وكان يوما مشهودًا، حيث كان يركب فيه القضاة الأربعة ووكيل بيت المال والمحتسب وأعلام الفقهاء والأمراء، ويقصدون باب القلعة مقرّ السلطان فيخرج إليهم على جمل، وأمامه أمير الحجّ في تلك السنة ومعه الحراس والسقّاءون على جمالهم، ويجتمع النّاس ويطوفون بالمحمل في شوارع القاهرة ومصر في شهر رجب من كلّ عام، ويستعدون منذ ذلك الحين للحجّ⁽⁶⁾.

كما اعتنى الممالك بشأن مدينتي مكّة والمدينة المنورة، وصارتا في عهدهم من المراكز الثقافيّة المعدودة في العالم الإسلاميّ، وكان أمرهم نافذا فيها وكانوا يغيّثون بمسالة كسوة الكعبة كلّ عام⁽⁷⁾.

وعني أمراء مكة والمدينة المنورة بتنشيط الحركة الثقافية والفكرية والعمل على ازدهارها، لكن عدم الاستقرار السياسي قد حال عائقا في طريق تحقيق الأهداف المرجوة في جعل الحرمين الشريفين محجّ المسلمين العلمي من كل الأقطار الإسلاميّة.

وممن اشتهر من هؤلاء الأمراء الأمير عجلان بن رميثة بن أبي نعي (ت 777هـ/1375م)، الذي كان مكرماً لأهل السنة بمكة، وقام بإنشاء مدرسته بالجانب الشمالي من المسجد الحرام.

وكان ابنه حسن بن عجلان (ت 829 هـ/1425م) من أفاضل الأمراء، حيث اهتم بعلماء مكة والمجاورين بها، وكان كثير المطالعة لكتب الحديث والتاريخ، والحرص على حضور المجالس العلمية إضافة إلى إنشائه لمجموعة من المؤسسات التعليمية والاعتناء بها ووقف الأوقاف عليها.

وواصل ابنه بركات بن حسن بن عجلان (ت 859هـ/1454م) هذه الانجازات لكونه نشأ في بيئة ثقافية وعلمية، وكان هذا الأمير من علماء الحديث إضافة إلى مساهماته الأدبية والشعرية⁽⁸⁾.

وفضلاً عن هذا فقد حظيت الحجاز باهتمام سلاطين المماليك الذين تلقبوا بلقب خادم الحرمين الشريفين وبقية ملوك وأمراء الدول الإسلامية الأخرى، وذلك لما للمكان من مكانة عظيمة عند المسلمين، فقاموا بتقرير الدروس وإنشاء المدارس التي كانت ملتقى أهل العلم من كل بقاع العالم الإسلامي، وفي هذا الصدد قرر السلطان الأشرف شعبان بن حسين بن الملك الناصر محمد بن قلاوون (ت 764هـ/1362م) دروساً في فقه المذاهب السنية الأربعة، ودرساً في علم الحديث، كما أنشأ مكتبا للأيتام بإشارة الأمير يلبغا الخاصكي⁽⁹⁾.

وقرر السلطان الظاهر جقمق المتفقه (ت 857هـ/1453م) درساً في الحرم المكي لإقراء كتاب صحيح البخاري⁽¹⁰⁾.

واعنى السلطان قايتباي (ت 901هـ/1495م) بعلماء الحجاز عامة. فأنشأ مدرسته على مشارف مكة لتدريس فقه المذاهب الأربعة سنة 882هـ/1477م وزودها بمكتبة، إضافة إلى رباط للفقراء ومكتبا للأيتام، ونظم الدراسة بهذه المؤسسات وأنفق على المدرسين بالذهب وأوقف عليها الأوقاف.

أما سلاطين دولة بني رسول الذين اشتهروا بالعلم في بلاد اليمن (630هـ/1232م - 858هـ/1454م) فقد ساهموا في هذه الإنجازات وأقاموا بدورهم الكثير من المدارس بمكة.

كما أن مساهمة ملوك الهند وأمراؤها المسلمون لم يقل عن اهتمام سلاطين المماليك وبني رسول رغم البعد الجغرافي، فأقام الملك غياث الدين أبو المظفر أعظم شاه (ت814هـ/1411م) صاحب بلاد بنجالة مدرسة بمكة وأخرى بالمدينة، وكان ملكا محبا للعلم فقيها مكرما للعلماء وأهل الصلاح⁽¹¹⁾، وأقام السلطان أحمد شاه بن أحمد شاه بن حسن شهاب الدين أبو المغازي (838هـ/1434م) رباطا ومدرستين بمكة والمدينة، وكان كثير النفقات على الحرمين الشريفين(12).

وكان السلطان الظاهر بيبرس البندقداري أول ملك بمصر كساها بعد الخلفاء العباسيين، وقام بذلك بعده سلاطين المماليك، وخصّصوا قرية في ظاهر القاهرة وقفوها لصناعة الكسوة من غلاتها كل عام وكان اسم السلطان يكتب عليها⁽¹³⁾.

أحباس وأوقاف المغاربة على الحرمين الشريفين⁽¹⁴⁾:

تعتبر الأحباس أو الأوقاف من الصدقات التي يتقرب بها العباد إلى خالقهم، واقتداء بالرسول صلى الله عليه وسلم عمل أبناء الأمة الإسلامية من الأثرياء والعلماء على تحبيس العقارات والمكتبات على حجاج بيت الله الحرام، وفي هذا السياق أمكن حصر عينات من الأوقاف التي خصها المغاربة للحرمين الشريفين وهي كالتالي:

- تحبيس السلطان أبي يعقوب يوسف المريني مصحفا على الحرم المكي سنة 703هـ/1303م تم حمله رفقة ركب الحاج المغربي وكان حجمه كبيرا ومرصعا بالدروالذهب والياقوت(15).

- تحيس السلطان أبي الحسن المريني مصحفا كتبه بخط يده، وتولى مجموعة من أكابر القراء بتدقيقه اللغوي وتضبطه، وكلف مجموعة من الوراقين بتذهيبه، وزين بالجواهر، وغلف بالجلد والحرير⁽¹⁶⁾.

- تحيس أبي العباس أحمد بن علي بن أبي بكر العبدري الميورقي الأندلسي (ت 687هـ)، والذي كان يقيم في مدينة الطائف بالحجاز، كما سكن مكة وحبس مكتبته على طلبة العلم بها، وكانت مكتبة مشتملة على فوائد جمّة، وممن استفاد منها مؤرخ الحجاز الشيخ تقي الدين الفاسي الذي وظف محتوياتها في كتابة تاريخ مكة المكرمة.

- تحيس الشيخ الأديب أبو عبد الله محمد الغرناطي (ت 745هـ/1345م) لمكتبته على طلبة العلم بإحدى المدارس بالمدينة المنورة، وكان من المجاورين⁽¹⁷⁾.

- تحيس الشيخ إبراهيم التلمساني (ت 766هـ/1364م) لمجموعة من الكتب في الفقه والأصول والحديث واللغة بمكة والمدينة⁽¹⁸⁾.

- تحيس أبي الطيب تقي الدين الفاسي لمكتبته العامرة على العلماء والطلبة وعامة القراء⁽¹⁹⁾.

ركب الحج المغربي:

يعد ركب الحج المغربي مؤسسة قائمة بذاتها، وقد خص هذا الركب بالعناية السامية للملوك والأمراء لما له من بعد ديني وهي دلالة على التدين العميق للمغاربة وارتباطهم الكبير بالبقاع المقدسة مهبط الرسالة النبوية ومنبع الإسلام، وكان ركب الحجّ المغاربة ينطلق من المغرب الأقصى باتجاه الحجاز، وكان يتكوّن من عدّة فئات من المجتمع ممّن لهم القدرة على إقامة ركن الحجّ، وخاصّة من الطلبة والعلماء الذين كان هدفهم من رحلة الحجّ أبعد من الحجّ نفسه، حيث توفر لهم بعد قضاء المناسك والسيّاحة في الحجاز⁽²⁰⁾ لقاء العلماء والاختلاط بهم و تبادل المعارف معهم والأخذ عنهم والاستفادة من علومهم⁽²¹⁾.

وكانت قافلة الحجّ عند مرورها بمصر ذهابا و إيابا توفر للطلاب والعلماء من المغرب فرصة الالتقاء بالمشايخ والفقهاء وأعيان العلماء المشاركة ممن ذاع صيتهم في

العالم الإسلامي، ويتم بينهم التبادل الثقافي، وعند عودة الرّكب إلى المغرب كانت تنتشر أخبار المشرق وعلمائه ما كان يرغب الطّلبة أكثر في الارتحال إليه⁽²²⁾.

كما كان المشاركة يأخذون العلم من المغاربة في إطار تبادل ثقافي ميزه وجود عدّة علماء وطلبة من عدّة أقطار إسلاميّة في مكان واحد، ممّا سهّل عمليّة الاتصال ولأخذ ولعطاء العلمي والثقافي، وإطلاع كلّ شخص على المستجدات العلميّة الحاصلة في بقاع العالم الإسلاميّ، واشتهر عن الوافدين المغاربة على مكة والمدينة بأنهم كانوا يجاورون بها في غالب الأحيان للتعبّد والتدريس وكان بعضهم يبقى مجاورًا حتى وفاته⁽²³⁾.

وبذلك كانت رحلة الحج توفر فرصة ثمينة تمتزج فيها أفكار علماء المغرب والمشرق، ويتم من خلالها تعرّف العلماء على بعضهم البعض شخصيا بعدما كانوا يتعارفون عن طريق المراسلات والمؤلفات، فيعرف كلّ عالم قدره ومكانته عند الآخرين ومدى توافق أفكاره وآرائه مع أفكار وآراء أقرانه من علماء الأقطار الإسلاميّة، ويحصل المزيد من العلم بالتقاء كبار علماء مكّة والمدينة المنورة، ولا تكاد تخلو ترجمة عالم من علماء المغرب الإسلامي من وجود شيوخ له أخذ عنهم بمكّة والمدينة أو أخذوا عنه، وكان ذلك من فضائل وخصال رحلة الحجّ في المجال الثقافي⁽²⁴⁾.

وفيما يلي عينات من ركاب الحاج المغربية:

ركب الحج عام 703هـ/1303م: في سنة 703هـ/1303م جهز المرينيون أول ركب للحجاج المغاربة بعدما انقطع لمدة بسبب الظروف الأمنيّة التي سادت المغرب في نهاية الحكم الموحيدي وبداية حكم بني مرين، وفي هذا الصدد يقول عبد الرحمن بن خلدون في كتابه العبر: "... واستجد أهل المغرب عزما في قضاء فرضهم، ورغبوا من السلطان إذنه في السفر إلى مكة، فقد كان عهدهم بعد بمثلها"⁽²⁵⁾، ويستفاد من هذا أن تجديد وإحياء تقليد ركب الحجيج بعد انقطاعه كان لرغبة شعبيّة⁽²⁶⁾، فقام السلطان المريني يوسف بن يعقوب بالاعتناء بتنظيمه شخصيا، وأسس بذلك تقاليد مغربيّة في تجهيز الحجاج إلى البقاع المقدسة. ومن جملة الإجراءات التي خص بها الركب هو أنه راسل كبير أشرف آل أمغار يلتمس منه فيها أن يعين

من عنده ثلاثة رجال ليكونوا رفقة الركب المتوجه إلى الحجاز⁽²⁷⁾، كما عين له قاضيا هو محمد بن زغبوش وكان من كبار أعلام المغرب، وأرفقه بفرقة عسكرية للحماية كانت مشكلة من حوالي 500 جندي من الزناتيين، كما حملهم أموالا جمة لتوزيعها على أهل الحرمين الشريفين⁽²⁸⁾.

وكان هذا الركب يضم الكثير من العلماء الذين أوكلت لهم مهمة حمل المصحف الشريف الذي قدمه السلطان المريني كهدية للحرم المكي، ومهم أبو عبد الله القصار، وأبو عبد الله محمد بن إبراهيم البقوري (ت 707هـ/1307م) الذي كلف شخصا بحمل الربعة القرآنية⁽²⁹⁾.

وقد قدم لنا عبد الرحمن بن خلدون وصفا للمصحف المغربي وقال عنه: "... فأمر يوسف بانتساخ مصحف رائع الصنعة، كتبه ونمقه أحمد بن الحسن الكاتب المحسن، واستوسع في جرمه، وعمل غشاه من بديع الصنعة، واستكثر فيه من مغالقات الذهب المنظم بخرزات الدرر والياقوت، وجعلت منها حصة وسط المغلق تفوق الحصيات مقدارا وشكلا وحسنا، واستكثر من الأصونة عليه"⁽³⁰⁾.

وقال ابن مرزوق الخطيب في المسند: "وقد رأيت بمكة شرفها الله تعالى المصحف الذي بعثه المولى أبو يعقوب بخط ابن الحسن، وكان وجهه محلى بالذهب المنظوم بالجواهر النفيسة، فانتزع ما عليه، وبقي في قبة الشراب يقرأ فيه احتسابا، وقد قرأت فيه في أعوام"⁽³¹⁾.

ركب الحج عام 724هـ/1324م: يذكر ابن مرزوق الخطيب في كتابه المناقب المرزوقية وفي خضم حديثه عن رحلاته المشرقية أنه في سنة 724هـ/1324م وفي شهر ربيع الأول انطلق ركب الحج المغربي من المغرب الأقصى برئاسة الشيخ أبي زكرياء بن عمر بن جدار العبد الوادي الذي كان من أهل فاس، وضم الركب مجموعة كبيرة من العلماء قدموا من فاس وطنجة وتلمسان ومليانة، ومر الركب ببجاية وقسنطينة وتونس، وفي كل مدينة كان الركب يزداد في عدد المنضمين إليه من القاصدين الحج إلى مكة، ثم مر بالإسكندرية والقاهرة ثم منها إلى مكة⁽³²⁾.

ركب الحج لعام 734هـ/1334م: في سنة 733هـ/1333م استعد أهل المغرب لموسم الحج الجديد، ووردت أخبار مفصلة عن هذا الركب في كتاب المناقب المرزوقية كشهادة حية، حيث تم تحضير لوازم الرحلة والسفر وكان أهل المغرب يعدون لذلك طعاما خاصا اسمه الفداوش، ويسمى في مصر بالأطرية، وكان يحمل منه الكثير نظرا لكونه مفيدا جدا للحجاج المسافرين فضلا عن كونه خفيف الحمل⁽³³⁾.

انطلق الركب في شهر محرم سنة 734هـ/1334م وكان فصل الربيع في أوله، وكان عدد الحجاج به حوالي 300 مسكن أو خيمة، وكانت كل خيمة تضم جماعة منهم⁽³⁴⁾، وكان يقوم على حراسة الركب حوالي 280 فارسا وجماعة من الرماة⁽³⁵⁾.

والشيء الجيد في ذلك العام أنه كان كثير الخصب حيث توفر الدقيق والغنم في كل الحواضر التي كان يمر بها من المغرب إلى المشرق، ووصل الركب إلى القاهرة في شهر جمادى الآخرة أي بعد خمسة أشهر من السفر، ومنها توجه إلى بلاد الحجاز⁽³⁶⁾.

ركب الحج عام 738هـ/1338م: يكتسي هذا الركب في السنة المذكورة أهمية خاصة في تاريخ الحجاج المغاربة إلى البقاع المقدسة، حيث بلغت شهرته أقطار المغرب والمشرق، وتميز بحج الأميرة المرينية حظية والد أبي الحسن، والربعة الشريفة التي بعثها أبو الحسن المريني إلى الحرم المكي، إضافة إلى أنه اشتمل على وجهاء بني مرين وأعيان العرب ورجال العلم والدين والصلاح، وعددا من نساء الدولة المرينية، وجماعات كثيرة من المغاربة⁽³⁷⁾.

وكان أبو الحسن المريني وبعد توحيده للمغربين الأقصى والأوسط، سعى لتأمين طرق الحاج المغاربة، وقام بكتابة نسخة من القرآن الكريم بخط يده وأمر الوراقين بتذهيبها وتنميقها بعد تهذيبها وضبطها من طرف المقرئين، عازما على جعلها وقفا ببلاد الحرمين الشريفين⁽³⁸⁾.

وإلى جانب هذه الرتبة الشريفة التي حملها الركب، أرسل أبو الحسن إلى الناصر المملوكي وخادم الحرمين الشريفين هدية عظيمة تحدث بها الناس في المغرب والمشرق.

وكان الركب قد انطلق من تلمسان في يوم الخميس 25 ربيع الثاني 738هـ/1338م، ووصل مصر في 22 رمضان من العام نفسه، واستقبل استقبالاً حافلاً من طرف المماليك⁽³⁹⁾، ويتضح ذلك من خلال وصف الرسالة التي بعث بها الملك الناصر إلى أبي الحسن.

ظاهرة المجاورة في مكة والمدينة المنورة:

يقصد بالمجاورة⁽⁴⁰⁾ البقاء في مكة أو المدينة النبوية بجوار الحرمين الشريفين لدوافع دينية أو علمية أو اقتصادية أو سياسية، وبرزت هذه الظاهرة بشكل واضح في عصر المماليك، وكان أكثر المجاورين من مصر وبلاد الشام والعراق والمغرب الإسلامي، وكان أغلبهم من العلماء والزهاد، إضافة إلى بعض المنفيين أو المطرودين من السلطة السياسية في هذه البلدان، كما وجد من المجاورين طائفة من كبار رجال الدولة المملوكية الذين فضلوا قضاء بقية حياتهم بجوار الحرمين الشريفين. ومن خلال كتب التراجم يلاحظ أن عدد المجاورين قد ازداد منذ القرن السابع ليبلغ الذروة خلال القرن التاسع الهجري حين أصبح المجاورون يمثلون نسبة كبيرة من المجتمع الحجازي⁽⁴¹⁾.

ومن العوامل التي جعلت الحجاز مقصداً لهذه الأعداد الغفيرة من الناس إضافة إلى العامل الديني والجو العلمي، هو وجود المرافق الضرورية للمجاور كالمدرسة والرباط والدور للإقامة، والنفقات التي كانت مخصصة لهم من طرف سلاطين وأمراء دول العالم الإسلامي.

وقد ساعد هذا الجو المليء بالنخب العلمية والسياسية والتجار من إضفاء جو خاص على الحركة العلمية بالحجاز، حيث وفرت الراحة النفسية الناجمة عن مجاورة العلماء لقبر الرسول صلى الله عليه وسلم، والالتقاء المتكرر للعلماء في مجالس العلم من تبادل الأفكار والعلوم والإجازات وتأليف الكثير من

المؤلفات التي أضيفت للمكتبة الإسلامية، ما شكل ما يسمى بالوحدة الثقافية للعالم الإسلامي بمشرقه ومغربه⁽⁴²⁾.

وكان للمغاربة المجاورين في مكة أماكن مخصصة لهم للإقامة فيها، ومنها رباط المغاربة الذي كان يسمى أيضا برباط الموفق ورباط عثمان بن عفان، قام بإنشائه القاضي الموفق علي بن عبد الوهاب الإسكندري (ت 624هـ) وهو من أهل مصر، وجعله خاصا بالفقراء والمتعبدين من المجاورين بمكة من المسلمين القادمين من بلاد المغرب، واستمر نشاط الرباط في العهد المملوكي واعتنى المغاربة بتسيير شؤون⁽⁴³⁾ه، وقال عنه ابن بطوطة في رحلته: "وهو من أحسن الرباطات، سكنته أيام مجاورتي بمكة المعظمة"⁽⁴⁴⁾.

وكثر المجاورون المقيمون بهذا الرباط خلال القرن الثامن الهجري/14م من العلماء والزهاد، ومنهم الشيخ أبو العباس أحمد بن مرزوق (ت 741هـ/1341م) الذي يعد من أهم الشخصيات العلمية التلمسانية والمغربية التي جاورت بالحرمين الشريفين، وكان له صيت طيب بين أقرانه من المجاورين والعلماء.

ومن سيرته خلال مجاورته بمكة أنه كان إذا صلى الصبح في مكة جلس لتجويد القرآن على يد عالم القراءات الشيخ برهان الدين بن مسعود المصري (ت 745هـ/1345م).

ثم كان يخرج لمواساة الضعفاء، ثم يطوف حول الكعبة المشرفة، ثم يعود إلى بيته ويأخذ قسطا من الراحة ثم يقوم ويتلو القرآن حتى الظهر، ثم يطوف وقد يجلس لسماع دروس الحديث إلى صلاة العصر، ثم يتلو القرآن إلى الغروب وكان مشهورا بالطواف الكثير حول الكعبة⁽⁴⁵⁾.

ومنهم الشيخ الفقيه عبد الله بن موسى الزواوي (ت 734هـ/1333م) الذي حج حوالي سنة 690هـ/1289م، وأخذ عن المقرئ الشيخ العفيف الدلاصي (ت 723هـ/1322م)⁽⁴⁶⁾ وغيره، وأقام بمكة والمدينة متصدرا للتدريس إلى غاية وفاته وكان يعد من الأولياء الصالحين⁽⁴⁷⁾.

وفي المدينة المنورة قام جماعة من أهل دكالة من بلاد المغرب الأقصى بإنشاء رباط لهم بأموالهم الخاصة سمي برباط دكالة، وكان يشتمل على غرف يسكنها المجاورون وأكثرهم من المغاربة الصالحين، وكانوا يتلون فيه القرآن ويذكرون الله تعالى⁽⁴⁸⁾.

عينة من مصنفي الرحلات الحجازية من المغاربة:

اهتم الكثير من العلماء المغاربة الذين ارتحلوا إلى المشرق عموماً وإلى الحجاز والحرمين الشريفين على وجه الخصوص بتدوين مشاهداتهم بتلك البلدان ووصلت إلينا في شكل كتب للرحلات وهي مصدر هام من مصادر التاريخ السياسي والثقافي والاجتماعي والاقتصادي والحضاري بالمغرب والمشرق، ولعل أهم الرحلات المدونة خلال عهد المماليك نذكر العينات التالية:

ابن سعيد المغربي (ت 685هـ/1286م)⁽⁴⁹⁾: هو نور الدين علي بن موسى بن عبد الملك العنسي الغرناطي، يعد من من الرحالين المغاربة الأوائل الذين زاروا الحجاز زمن المماليك، وقد حج سنة 639هـ/1236م، ثم سنة 666هـ/1267م، وصنف مؤلفاً في رحلته الأولى سماه "النفحة المسكية في الرحلة المكية" وفي الثانية ألف "عدة المستنجز وعقلة المستوفز" ذكر فيه بعض أخبار رحلته ببدايعها وغرائبها لكن هذا المصنف لم يصل إلينا⁽⁵⁰⁾.

محمد بن عمر بن رشيد السبتي (657-721هـ/1258-1321م)⁽⁵¹⁾: ولد بسبته وتوفي بفاس، وهو من أشهر الرحالين المغاربة إلى المشرق، حيث زار الحجاز سنة 683هـ/1284م والتقى بأهل العلم وأثنى عليه كل من ترجم له ووصف بالثقة والعدل، وكان عارفاً بعدة علوم كالقراءات واللغة العربية وعلم البيان والعروض، وكان أديباً خطيباً وله شعر. كما كانت له عناية بعلم الحديث وضبط أسانيده وحافظاً للتواريخ. وصنف رحلته المسماة "ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجهة إلى الحرمين مكة وطيبة". وأهم ما يميز هذه الرحلة أن لها صبغة علمية، فدون فيها تراجم من لقيهم من العلماء والحفاظ والفقهاء والأدباء في المدن المشرقية،

وأوضح طرق التعليم التي كانت متبعة آنذاك، والبرنامج الدراسي الذي كان سائدا، والكتب التي أجزى فيها، فضلا عن ذكر أماكن التحصيل العلمي من المدارس والمساجد وبيوت الفقهاء⁽⁵²⁾.

محمد العبدري⁽⁵³⁾: هو محمد بن محمد بن علي بن أحمد بن مسعود العبدري الحيجي نسبة إلى حاحة بنواحي مراكش، كان عالما ملما بعلوم كثيرة، ارتحل إلى بلاد المشرق سنة 688هـ/ 1279م لأداء فريضة الحج ولأهداف علمية وتجارية، ودون كل نشاطاته في كتاب سماه " الرحلة المغربية" وصف فيه البلدان التي زارها وأحوال ساكنيها بشكل من الموضوعية ودون مبالغة، ولفت انتباهه قلة إقبال أهل المدن على العلم.

القاسم بن يوسف التجيبي السبتي (670 – 730هـ/ 1271 – 1329م)⁽⁵⁴⁾: ولد ونشأ في سبتة، أصله من الأندلس، صوف بالعالم البارع والمحدث الحافظ والمتقن العارف بالحديث. خرج لأداء فريضة الحج ولقاء العلماء سنة 695هـ/ 1295م، وسار بالطريق التي تربط بين حواضر المغرب الإسلامي إلى غاية القاهرة، ودون رحلته المسماة "مستفاد الرحلة والاعترا ب" وصلنا الجزء الثالث منها والذي تحدث فيه عن القاهرة وجدة ومكة وتراجم العلماء الذين أخذ عنهم، كما صنف كتاب " البرنامج" وهو عبارة عن تراجم مستخلصة من الكتاب الأول، واعتنى في الرحلة بتدوين المشاهدات الجغرافية والعمرانية وضبط أسماء المدن وفيها إشارات سياسية واقتصادية واجتماعية كثيرة، كما أعطى وصفا دقيقا للمسجد الحرام وحالة مكة المكرمة الدينية والعلمية والعمرانية⁽⁵⁵⁾.

أبو عبد الله محمد بن جابر الوادي آشي (673 – 749هـ/ 1274 – 1348م)⁽⁵⁶⁾: هو محمد بن جابر بن محمد بن محمد بن قاسم بن أحمد بن إبراهيم القيسي الوادي آشي الأصل⁽⁵⁷⁾، ولد بتونس وتعلم بها، ثم ارتحل إلى بلاد المشرق طلبا للعلم وحاجا والتقى بعدد كبير من العلماء قيدهم في برنامجهم⁽⁵⁸⁾.

أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن بطوطة اللواتي الطنجي (703-770هـ / 1303 - 1368م)⁽⁵⁹⁾: يعد من أشهر الرحالين المغاربة والعرب في القرن الثامن الهجري، ينتسب إلى أسرة علم، ارتحل من طنجة قاصدا الحج وزيارة المسجد

النبوي سنة 725هـ/1324م، وأدى فريضة الحج سبع مرات، وجال في بلاد المشرق الإسلامي وبلغ فارس والهند وجزر المالديف، ودامت رحلته 25 سنة وعاد إلى فاس سنة 750هـ/1349م، ثم قصد الأندلس ثم بلاد السودان وعاد منها سنة 754هـ/1353م.

وَأَلَفَ بن بطوطة كتاباً سماه " تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار " ذكر فيها مشاهداته.

أبو البقاء خالد بن عيسى بن أحمد البلوي (713-780هـ/1313-1387م)⁽⁶⁰⁾:

من أهل قنتورية بالأندلس، ارتحل سنة 736هـ/1336م بقصد الحج وطلب العلم، وأجاز البحر إلى ساحل المغرب وأقام في تونس ثم ركب البحر ثانية إلى الإسكندرية ومنها إلى القاهرة، ثم زار القدس ومنها سار إلى الحجاز رفقة ركب الحاج الشامي، ثم قضى الفرض وعاد مع ركب الحاج المصري، ثم غادر مصر إلى بلاد المغرب عائداً إلى الأندلس، ودون رحلته في كتاب سماه " تاج المفرق في تحلية علماء المشرق " ذكر فيه جملة الشيوخ الذين أخذ عنهم العلم ووصف المدن التي مر عليها وأشار إلى الحالة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعلمية في عصره، واعتنى بتسجيل الكتابات الأثرية على المسجد الحرام والمسجد النبوي ووصفهما وسجل أسماء المدارس والمساجد المكية والمدنية والمكتبات الموجودة بها⁽⁶¹⁾.

أبو الحسن علي القلصادي (ت 891هـ/1486م)⁽⁶²⁾ : وهو علي بن محمد القرشي البسطي، أصله من الأندلس، قام برحلة في المغرب المشرق وأخذ عن جملة من العلماء أمثال: ابن مرزوق الحفيد وأبي عبد الله محمد الشريف التلمساني وأبي عبد الله محمد بن التجار، وابن زاغو وقاسم بن سعيد العقباني⁽⁶³⁾ بتلمسان، وأبي العباس القلشاني وأحمد المنستيري وأبي عبد الله الدهان الطيب، بتونس⁽⁶⁴⁾ وزين الدين طاهر النويري المالكي وعلم الدين الحصني الشافعي بالقاهرة وكذلك ابن حجر العسقلاني وجلال الدين المحلي وقاسم النويري وتقي الدين الشَّمني الحنفي⁽⁶⁵⁾.

وكان يعقد الحلقات العلميّة ويتولى الإقراء، كما استفاد منه طلبة القاهرة لما عاد من أداء مناسك الحجّ وأقام بمصر، فقرأ عليه النّاس وكتبوا مصنفاته وكان مع ذلك يتردد على العلماء المصريين ويدرس العقليات على وجه الخصوص⁽⁶⁶⁾.

وقد ترك القلصادي مجموعة من المؤلّفات في الحساب والفرائض والفقه والنحو والعروض والمنطق والتراجم والقراءات ولحديث⁽⁶⁷⁾ منها: عتية ذوي الألباب في شرح كشف الجلباب، كشف الأسرار في علم الغبار، كشف الجلباب عن علم الحساب، شرح الأرجوزة الياسمينية، شرح مختصر خليل، شرح جمل الزجاجي، شرح إيساغوجي، شرح حكم ابن عطاء الله⁽⁶⁸⁾.

وتعد رحلته الّتي دَوّنَ فيها مشاهداته وعرّف فيها بالعلماء الّذين التقى بهم من أهم مصادر التراجم، كما احتوت على وصف المدن والمقدسات الإسلاميّة في المشرق.

الخاتمة:

إن الأواصر والعلاقات التي جمعت بين المغاربة والمشاركة طيلة عهود التاريخ الوسيط تميزت بكونها متعددة الأوجه، والبارز فيها التواصل العلمي والثقافي، حيث حرص المغاربة على الاستزادة من التحصيل العلمي بالرحلة إلى المشرق، ولما كان الحج ركنا من أركان الإسلام، فقد حرص المغاربة والمشاركة على إقامة شعائره، وكان ركب الحج المغربي يوفر الجو الملائم للقاء بين العلماء والطلبة، خاصة وأن مكة المكرمة والمدينة المنورة كانتا مقصد جميع المسلمين في العالم من العلماء وغير العلماء وعلى شتى المذاهب الفقهية والعقيدية، ما وفر جوا من التبادل الفكري ميزه رغبة الكثير من المغاربة في المجاورة لعدة سنوات بالحرمين الشريفين قصد العبادة وطلب العلم والتدريس، وهو الأمر الذي انعكس بالإيجاب على الحركة الثقافية في المغرب والمشرق على حد السواء.

الهوامش:

- (1) - هو الشيخ الصوفي أبو عبد الله محمد بن عباد النفزي الحميري الرندي (733-792 هـ/1332-1390 م) من كبار علماء الأندلس، له كتاب التنبيه الذي وضعه على حكم ابن عطاء الله السكندري (ت 709 هـ / 1309). ابن عباد الرندي، الرسائل الصغرى، تحقيق: الأب بولس يوحنا اليسوعي، دار المشرق، بيروت، 1974، مقدمة المحقق.
- (2) - يقصد القرن الثامن الهجري/14 م.
- (3) - ابن عباد الرندي، المصدر السابق، ص 66.
- (4) - القلقشندي (أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد ت 821 هـ/1418 م)، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج 8، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1985، ص 86.
- (5) - ابن الخطيب (لسان الدين ت 776 هـ/1374 م)، تاريخ اسبانيا الإسلامية أو كتاب أعمال الأعلام، تحقيق: ليفي بروفنسال، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2006، ص 319 - التنسي (محمد بن عبد الجليل ت 899 هـ/1493 م)، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان مقتطف من نظم الدرر والعقيان في بيان شرف بني زيان، تحقيق: محمود بوعباد، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985 ص 211 - ابن خلدون (أبو زيد عبد الرحمن ت 808 هـ/1406 م)، التعريف بابن خلدون ورحلته شرقاً وغرباً، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1981، ص 1156.
- (6) - ابن بطوطة (محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي ت 776 هـ/1373 م)، رحلة ابن بطوطة تحفة النظر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، (جزآن)، تحقيق: محمد عبد المنعم العريان، مراجعة: مصطفى القصاص، دار إحياء العلوم، بيروت، 1996، ج 1، ص 65 - البتنوني (محمد لبیب)، الرحلة الحجازية، الطبعة الثانية، مطبعة الجمالية، مصر، 1329 هـ، ص 140 - المقرئ (تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي ت 845 هـ/1442 م)، كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، الجزآن الأول والثاني (6 أقسام)، تحقيق: مصطفى زيادة، الجزآن الثالث والرابع (6 أقسام)، تحقيق: سعيد عبد الفتاح عاشور، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1934-

- 1972، ج2، ص 9 - ابن تغري بردي (جمال الدين أبي المحاسن يوسف الأتابكي ت 774هـ/1470م)، **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، (16 جزءاً)، تحقيق: إبراهيم علي طرخان، المؤسسة المصرية العامة، القاهرة، 1972، ج7، ص 311 - القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج4، ص 57-58 - عاشور (سعيد عبد الفتاح)، **المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك**، دار النهضة العربية، القاهرة، 1962، ص 181 - الحدّاد (محمد إسماعيل)، **السلطان المنصور قلاوون**، الطبعة الثانية، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1998، ص 85 - أشرف أبو اليزيد، "رحلة الحج رحلات المحمل الشريف"، **مجلة العربي**، ع 566، يناير 2006، ص 100-104.
- (7) - كان أول من قام بكسوة الكعبة أسعد اليماني ثمّ كساها الرسول صلى الله عليه وسلّم بالثياب اليمانية ثم كساها الخلفاء من بعده واستمرت كسوتها خلال عهد العباسيين. أبو الحسن الماوردي، **الأحكام السلطانية والولايات الدينية**، تج: عصام فارس الحرساني، محمد إبراهيم الزغلي، المكتب الإسلامي، بيروت، 1996، ص 253-254.
- (8) - السّخاوي (شمس الدّين محمد بن عبد الرّحمان ت 902هـ/1497م)، **الضوء اللامع لأهل القرن التاسع**، (12 جزءاً)، دار مكتبة الحياة، بيروت، دون تاريخ طبع، ج3، ص13.
- (9) - ابن حجر العسقلاني (أحمد بن علي ت 852هـ/1448م)، **الدّر الكامنة في أعيان المائة الثامنة**، (5 أجزاء)، تحقيق: محمد سيد جاد الحق، مطبعة المدني، القاهرة، 1966، ج2، ص190.
- (10) - ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج15، ص 456 - السخاوي، **الضوء اللامع**، ج3، ص83.
- (11) - ابن تغري بردي، **المهمل الصافي**، ج2، ص 458.
- (12) - السخاوي، **الضوء اللامع**، ج1، ص210.
- (13) - أبو الطيّب تقي الدين الفاسي المكي، **شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام**، ج2، مكتبة النهضة الحديثة - دار إحياء الكتب العربية، مكّة المكرمة، 1956، ص 298-299.
- (14) - للمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع يمكن الرجوع إلى الدراسات التالية: محمد بن زين العابدين رستم، "مشاركة أهل الغرب الإسلامي في الوقف على الحرمين الشريفين"، بحث مقدم للمؤتمر العالمي للأوقاف، الجامعة الإسلامية، المملكة العربية السعودية، 1430هـ/2009م، ص 727 وما يليها - حسن الواركلي، "أحباس المغاربة في الحرمين الشريفين"، بحث مقدم لمؤتمر الأوقاف الأول في المملكة العربية السعودية، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، 1433هـ/2012، ص 67-84.
- (15) - ابن مرزوق الخطيب (أبو عبد الله محمد التلمساني ت 781هـ/1379م)، **المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن**، تحقيق: ماريّا خيسوس بغيرا، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص 476 - المنوني (محمد)، **ورقات عن حضارة المرينيين**، الطبعة الثالثة، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2000، ص 172-173.

- (16) - النَّاصِرِي السَّلَاوِي (أبو العَبَّاس أَحْمَد ت 1315 هـ/1897م)، الاستقصاء لأخبار دُول المغرب الأقصى، الجزء الأوَّل، تحقيق: محمد و جعفر الناصري، دار الكتب، الدَّار البيضاء، 1954، ج3، ص12.
- (17) - الواركلي، المرجع السابق، ص 76.
- (18) - الواركلي، المرجع السابق، ص 77.
- (19) - السخاوي، الضوء اللامع، ج3، ص311.
- (20) - كانت هناك عدَّة مزارات مقصودة من طرف المسلمين بالحجاز بالمدينة و مكَّة منها قبور الرِّسُول الكريم وقبور الصحابة و غار حراء و أماكن أخرى. أبو الحسن الهروي، كتاب الإشارات إلى معرفة الزيارات، تج: جانين سورديل طومين، المعهد الفرنسي للدراسات العربيَّة، دمشق، 1953، ص 85-96 - محمد بن محمود بن النجار، الدرة الثمينة في تاريخ المدينة، مكتبة النهضة الحديثة، مكَّة المكرمة، 1956، ص 332-397 - القلصادي (أبو الحسن علي بن محمد بن محمد القرشي البسطي ت 891 هـ/1486م)، رحلة القلصادي تمهيد الطالب ومنتهى الراغب إلى أعلى المنازل والمناقب، تحقيق: محمد أبو الأجفان، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1978، ص 136.
- (21) - ابن عباد الرندي، المصدر السابق، ص 70 - القلصادي، المصدر السابق، ص 135.
- (22) - المقرئ (أبو العَبَّاس أَحْمَد بن محمد التلمساني ت 1041 هـ/1631م)، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب و ذكر وزيرها لسان الدِّين بن الخطيب، (10 أجزاء)، تحقيق: يوسف الشيخ محمد البقاعي، دار الفكر العربي، بيروت، 1998، ج3، ص 4-5.
- (23) - ابن بطوطة، المصدر السابق، ج1، ص 165-166.
- (24) - القلصادي، المصدر السابق، ص 134-135.
- (25) - عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1981، ج7، ص226.
- (26) - المنوني، ورقات، المرجع السابق، ص172.
- (27) - المرجع نفسه، ص173.
- (28) - عبد الرحمن بن خلدون، العبر، ج7، ص226.
- (29) - ابن فرحون اليعمري (برهان الدِّين إبراهيم بن علي بن محمد ت 799 هـ/1397م)، الدِّياج المذهب في معرفة أعيان المذهب، مصر، 1351هـ، ص322.
- (30) - عبد الرحمن بن خلدون، العبر، ج7، ص226.
- (31) - ابن مرزوق الخطيب، المسند، ص 476.
- (32) - ابن مرزوق الخطيب التلمساني، المناقب المرزوقية، دراسة وتحقيق: سلوى الزاهري، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، 2008، ص301-304.

- (33) - ابن مرزوق، المصدر نفسه، ص 197.
- (34) - لو افترضنا أن كل خيمة كانت تضم 10 أشخاص لكان العدد الإجمالي للحجاج هو 3000 حاج.
- (35) - ابن مرزوق الخطيب، المناقب المرزوقية، ص 198.
- (36) - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
- (37) - المنوني، ورقات، ص 183.
- (38) - السلاوي، الاستقصا، ج 2، ص 62.
- (39) - المقرئزي، السلوك، ج 2، ص 447.
- (40) - وقع الاختلاف في حكم المجاورة من الناحية الدينية بين فقهاء المذاهب السنية الأربعة، فالشافعي قد استحبها وأحمد بن حنبل وبعض الأتباع أبي حنيفة والإمام مالك، وهناك من قال بكرهتها. مفتاح خلفات، قبيلة زواوة بالمغرب الأوسط، ص 441.
- (41) - عبد العزيز بن راشد السنيدي، "المجاورون في مكة وأثرهم في الحياة العلمية"، بحث مقدم إلى ندوة مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية 1426هـ، ص 3.
- (42) - عبد العزيز بن راشد السنيدي، المرجع نفسه، ص 7.
- (43) - ابن مرزوق الخطيب، المناقب، ص 216 - الواركلي، المرجع السابق، ص 81.
- (44) - ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 97.
- (45) - ابن مرزوق، المناقب، ص 216.
- (46) - مفتاح خلفات، قبيلة زواوة بالمغرب الأوسط، ص 496.
- (47) - ابن مرزوق الخطيب، المناقب، ص 217.
- (48) - ابن مرزوق، المصدر نفسه، ص 221.
- (49) - المقرئ، نفح الطيب، ج 2، ص 273.
- (50) - المقرئ، نفح الطيب، ج 2، ص 271 - نها ملاعب، "الرحلة الحجازية المغربية في زمن المماليك (648 - 923هـ / 1250 - 1517م)"، أوراق جامعية: مجلة دورية متخصصة تصدرها رابطة الأساتذة في الجامعة اللبنانية، ع 32، س 17، 2009، ص 117.
- (51) - ابن فرحون، الديباج، ص 310 ص 347-356 - العسقلاني، الدرر الكامنة، ج 4، ص 111.
- (52) - عواطف محمد، المرجع السابق، ص 115.
- (53) - ابن القاضي (أبو العبّاس أحمد بن محمد بن أحمد المكناسي ت 1025 هـ/1615م)، جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام بمدينة فاس، دار المنصور، الرباط، 1973، ج 5، ص 96. مخلوف (محمد بن محمد)، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، دار الكتاب العربي، بيروت، 1349 هـ، ص 217.

- (54) - التنبكي (أبو العباس أحمد بن أحمد بابا ت 1032 هـ/1624م)، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، طُبِعَ على هامش الديباج لابن فرحون، مصر، 1351 هـ، ص222 - ابن حجر، الدرر الكامنة، ج3، ص240.
- (55) - عواطف محمد، المرجع السابق، ص132.
- (56) - ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج3، ص413 - ابن القاضي، درة الحجال، ج2، ص102.
- (57) - من قرى الأندلس قرب غرناطة. الحميري، الروض المعطار، ص604.
- (58) - ابن القاضي المكناسي، درة الحجال في أسماء الرجال، (4 أجزاء)، تحقيق: محمد الأحمد أبو النور، دار النصر للطباعة، القاهرة، 1970، ج2، ص102.
- (59) - ابن بطوطة، الرحلة، ص8 وما يليها- لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج3، ص273.
- (60) - ابن القاضي، درة الحجال، ج1، ص262 - المقرئ نفح الطيب، ج2، ص532 - لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة، ج1، ص500 - التنبكي، نيل الابتهاج، ص115.
- (61) - عواطف محمد، المرجع السابق، ص140.
- (62) - القلصادي، المصدر السابق، ص82-168 - ابن مريم (أبو عبد الله بن أحمد الملبّي التلمساني كان حيًا سنة 1014 هـ/1605م)، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، تحقيق: محمد بن أبي شنب، نشر: عبد الرحمن طالب، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986، ص141 - السخاوي، الضوء اللامع، ج5، ص14 - التنبكي، المصدر السابق، ص209 - المقرئ، نفح الطيب، ج5، ص692.
- (63) - القلصادي، المصدر السابق، ص96-109.
- (64) - القلصادي، المصدر السابق، ص115-122.
- (65) - نفسه، ص129، 149-156.
- (66) - السخاوي، الضوء اللامع، ج6، ص15.
- (67) - أبو الأجنان، مقدمة تحقيق رحلة القلصادي، ص40-47.
- (68) - ابن مريم، البستان، ص142-143 - التنبكي، المصدر السابق، ص210.